أثر علماء المعتزلة في الدراسات الأدبية والنقدية في القرنين الثاني والثالث للهجرة

بقلم

أ. د. أحمد عبد الغفار عبيد

أستاذ الأدب والنقد

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالإسكندرية

لم يقتصر أثر حركة الاعتزال على بحوث العقيدة ومسائل علم الكلام، بل سرت روحها المتحررة لتعالج كثيراً من القضايا الفكرية والأدبية في الحقبة التي ذاعت فيها الحركة في القرنين الثاني والثالث للهجرة. وكانت حركة الاعتزال قد عنيت في الأساس بتخليص الفكر الإسلامي من شوائبه، وكانت دعوة علماء المعتزلة في جوهرها ثورة على النهج المضطرب في فهم حقائق الدين، والفوضى الفكرية في تقرير أصوله، والانحراف عن الجادة في فهمها بين تطرف الغالين الذين أباحوا لأنفسهم تفسير أمور الدين وفق أهوائهم، وتطويعها لمذاهبهم وانتماءاتهم، وبين إحجام المتزمتين الذين توقفوا عن التأويل والتفكير، وأحاطوا تلك المسائل بسياج من الصمت والتحفظ.

هذا عن جهود المعتزلة في ميدان الدراسات العقدية والكلامية، أما جهودهم في ميدان التحرر الفكري فقد حاربوا الخرافات والأوهام، وناقشوا كثيراً من المعتقدات التي لا تتفق مع مباديء العقل، ولا تتمشى مع أصول المنطق المستقيم، وعملوا على تحرير عقول العامة، وأسهموا في مختلف فروع الثقافة بآراء قيمة ونظرات صائبة... وعلى سبيل الإجمال كان للمعتزلة نصيب في تلك اليقظة الفكرية التي تغلغلت في مختلف نواحي الحياة في المجتمع الإسلامي منذ أواخر القرن الثاني الهجري.

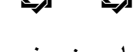

عُرِفَ مذهب الاعتزال أول ما عرف في أواخر القرن الأول الهجري، واشتهر بين الباحثين أن مؤسسه هو واصل بن عطاء الغزال، تلميذ الحسن البصري " وكان ذلك في زمن عبد الملك وابنه هشام [1] " وانضم إليه عمرو بن عبيد وجماعة من العلماء، وعن طريقهم بدأت بذور فكر الاعتزال تتبلور، حتى غدت مذهبا له مكانته في الفكر الإسلامي، وبلغ ذلك المذهب ذروة قوته وشيوعه في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث للهجرة، وصار المذهب المعتد به لدى عدد من خلفاء بني العباس في تلك الحقبة، وارتبط شيوعه وكثر معتنقوه بتأثير أوضاع فكرية واجتماعية عامة تركت آثارها على دولة الخلافة الإسلامية في تلك المرحلة ؛ ففي الجانب الاجتماعي دخلت عناصر غير عربية في المجتمع العباسي، وكانت لهذه العناصر عقائدها ونحلها التي بقيت لها رواسب في فكرهم ولم يتخلصوا منها نهائيا على الرغم من دخول سوادهم في الإسلام، وفي الجانب الفكري تمت ترجمة كثير من كتب اليونان والفرس والهنود، وكان لهذه المؤلفات تأثير لا يستطاع إغفاله

على جمهور المثقفين في تلك الحقبة، وكان من آثار ذلك نضوج فكر الاعتزال متأثراً بذلك المناخ العام الذي يشجع على تلك الأفكار ويستلزمها.

وعلى صعيد آخر يلاحظ أن تلك الحقبة شهدت كذلك شيوع تيارات فكرية وعقدية لم يكن للمجتمع الإسلامي عهد بها من قبل كظهور الزندقة والإلحاد بين بعض من تستروا بعباءة الإسلام من الأعاجم وكانوا يبطنون العداء له، ويدسون الأفكار المشككة في عقيدته، وينفثون سمومهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وبذل الساسة جهودا مأثورة في التصدي لهذه الحركات الهدامة، بيد أن علماء الكلام وفي مقدمتهم المعتزلة قاموا بجهد فكري خلاق في هذا السبيل، تمثل ذلك الجهد في مقارعة الشبهة بالحجة، ودفع الزعم الباطل باليقين الناصع والحق الصراح. يقول أبو الحسين الخياط في كتابه (الانتصار والرد على ابن الرواوندي الملحد) :

" وهل على الأرض أحدٌ ردَّ على أهل الدهر سوى المعتزلة كإبراهيم وأبي الهذيل ومعمر الأسواري وأشباههم ؟ وهل يُعرف أحدٌ صحح التوحيد وثبت القديم – جل ذكره – واحداً في الحقيقة، واحتج لذلك بالحجج الواضحة، وألَّف فيه الكتب، وردَّ فيه على أصناف الملحدين من الدهرية والثنوية سواهم ؟ !" [٢] ويقول في موضع آخر عن إبراهيم النظام : "وهو وأشباهه من علماء المسلمين الذين شغلوا أنفسهم بجوابات الملحدين ووضع الكتب عليهم، إذ شُغِل أهل الدنيا بلذَّاتها، وجمع حطامها " [٣].

ومع أن هدف المعتزلة الفكري كان ساميا، وأن غايتهم كانت نبيلة، فإن الطريق أمام نشاطهم الفكري وجهدهم العلمي لم يكن ميسوراً بل امتلأ بالعوائق، وحفته المخاطر ؛ فلم تكن بحوث علم الكلام في بداية الأمر مما تسوغه عقول السواد الأعظم من جمهور المسلمين، وكان أكثر العلماء يميلون إلى تقليد منهج السلف في الصمت إزاء طرح بعض قضايا العقيدة على بساط البحث العقلي، ويتحفظون في هذا الجانب أيما تحفظ فضلا عن أن البحث في بعض تلك القضايا قد أدت بالخائضين في إلى الشطط والتخبط مما دفع بكثيرين من العلماء إلى اتهام هؤلاء بالإلحاد أو الزندقة، وكانت تلك من الاتهامات التي تلصق جزافاً لأدنى شبهة، يقول المرتضي ..." : وكان الرشيد نهى عن الكلام، وحبس جميع المتكلمين، حمله على ذلك قوم لم يعرفوه، والمرء عدوُ ما جهل، حُكِيَ أنه اجتمع عنده رجلان يتكلمان في مسألة من الكلام فبعث بهما إلى الكسائي لينظر ما بينهما، فلما

دخلا عليه وتكلما وبلغا من الكلام موضعا لا يعرفه قال : هما زنديقان يقتلان [٤] " !!

مباديء المعتزلة ومقومات فكرها :

قام مذهب الاعتزال على خمسة مباديء أساسية، من اعتنقها جميعاً وصدَّق بها استحق أن يكون معتزليا، ومن نقص منها شيئا أو زاد عليها، فقد خرج عن دائرة الاعتزال. أما الاختلاف حول فروع هذه الأصول الخمسة فلا يضر ذلك صاحبه بشيء فإن فرق المعتزلة قد اتفقت كلها ابتداءً على هذه الأصول، ثم انفردت كل فرقة بأحكام أخرى فرعية. وهذه المباديء الأساسية هي:

التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [٥] " ويلخص المرتضي تلك المباديء بقوله " : أجمعت المعتزلة على أن للعالم محدثا قديماً قادراً عالماً حيًّا لا لمعانٍ، ليس بجسمٍ ولا عرض ولا جوهر، عيناً واحداً لا يدرك بحاسة، عدلاً حكيماً، لا يفعل القبيح ولا يريده، كلَّف تعريضاً للثواب، ومكَّن من الفعل وأزاح العلة ولابدَّ من الجزاء، وعلى وجوب البعثة حيث حسنت، ولابد للرسول صلى الله عليه وسلم من شرح جديد أو إحياء مندرس، أو فائدة لم تحصل من غيره، وأن آخر الأنبياء هو محمد صلى الله عليه وسلم، وأن القرآن معجزة له، وأن الإيمان قولٌ ومعرفة وعمل، وأن المؤمن من أهل الجنة، وعلى المنزلة بين المنزلتين، وهو أن الفاسق لا يسمى مؤمنا ولا كافراً....، وأجمعوا أن فعل العبد غير مخلوق فيه...، وأجمعوا على وجوب الأمر بالمعروف وانهي عن المنكر [٦] "

وعلى الرغم مما يبدو في مباديء المعتزلة من جرأة، وما تتسم به من تجديد وخروج على المألوف فإن أصول هذه المباديء مستمدة من صميم العقيدة الإسلامية، وهي ليست نتاج فلسفة وافدة، أو نتاج مرحلة زمنية بعينها، وقد ذكر المرتضي أن أصول مذهب الاعتزال كانت معروفة لدى المسلمين قبل أن ينادي بها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ومن سار على نهجهما، وقد سلك المرتضي للاحتجاج على ذلك طريقين :

أولهما :

أن ما ذكره واصل وعمرو قد أخذاه "عن محمد بن علي بن أبي طالب، وابنه هاشم

بن عبد الله بن محمد، ومحمد هو الذي ربَّى واصلا وعلمه حتى تخرج واستحكم ومحمد أخذ عن أبيه علي بن أبي طالب عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) وما ينطق عن الهوى " (٧).

الآخر :

عدَّ المرتضي في الطبقة الأولى من المعتزلة كبار الصحابة وفي مقدمتهم الخلفاء الأربعة، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبو ذر الغفاري، وعبادة بن الصامت. ..وغيرهم كثير. يقول المرتضي موضحا سبق علي بن أبي طالب إلى تقرير مبدأ العدل الذي اعتنقه المعتزلة " : أما علي عليه السلام فقصة الشيخ الذي سأله عند انصرافه من صفين أكان المسير بقضاء الله وقدره. - ..مصرح بالعدل وإنكار الجبر. وذلك أنه لما انصرف من صفين قام إليه شيخ فقال : أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء وقدر ؟ فقال عليه السلام : والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة ما هبطنا واديا، ولا علونا تلعة إلا بقضاء وقد ر ! فقال الشيخ : عند الله أحتسب أبنائي ! ما لي من الأجر شيء ! فقال : بل أيها الشيخ عظَّم الله لكم الأجر وأنتم سائرون، وفي منقلبكم وأنتم منقلبون، ولم تكونوا في شيء من حالتكم مكرهين، ولا إليه مضطرين. فقال الشيخ : وكيف ذلك ! والقضاء والقدر ساقانا وعنهما كان مسيرنا ؟ فقال عليٌّ عليه السلام : لعلك تظن قضاء واجبا، وقدراً حتما ؟ ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، ولما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب، ولا محمدة لمحسن، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسيء، ولا المسيء بعقوبة الذنب أولى من المحسن ! تلك مقالة إخوان الشيطان وعبدة الأوثان...، إن الله تعالى أمر تخييرا، ونهى تحذيرا، ولم يكلف مجبرا، ولا بعث الأنبياء عبثا، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار، فقال الشيخ : وما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا ؟ فقال : أمر الله بذلك وإرادته، ثم تلا : وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا. فنهض الشيخ مسروراً بما سمع وأنشأ يقول :

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً جزاك ربك بالإحسان إحسانا(٨)

ثم مضى المرتضي بعد ذلك يسرد من أقوال الصحابة ومواقفهم ما يؤيد مباديء الاعتزال ويؤكد صحتها. ولعل المرتضي بذلك يقصد إلى التأكيد على أن مباديء فكر

المعتزلة مستمدة من أصول العقيدة الإسلامية، ومستندة إلى حجج قوية من الكتاب والسنة، وأقوال السلف المشهود لهم، ومعطيات الفكر الصحيح، والاستنباط الصائب.

ويقرر " نيبرج " أهمية الأثر الذي تركته حركة الاعتزال في الفكر الإسلامي بقوله :وهم أشد المسلمين دفاعاً عن الإسلام في ذلك الزمان، وحمية في الرد على مخالفيه وأنا أميل إلى القول بأنه لم يكن في التاريخ أحد نجح نجاح " النظام " إبطال كلام الثنوية وإسقاطهم عن مركزهم وشأنهم في الشرق الأدنى، ولم يصدر الكيد من هوى حل بهم، ولم يقع عبثاً، بل قامت المعتزلة بأشدَّ ما احتاج إليه الإسلام في ذلك العصر وهو الاستعانة بما استعانت به الأديان المحيطة به كلها من أسلوب متين، وطريق فلسفي ؛ لإبراز ما كمن في الدين من القوى والفضائل، فلم يكن بدٌّ من الاستغراق في الأبحاث والدقائق ؛ ليظهر الإسلام في مظهر التحدي، ويفوز ما أراد فوزه، ولو لم يقم بهذا الواجب من الأمة من كانت له كفاءة لما تقرب الإسلام إلى الأذهان، ولما نهض بين الأديان، ولما صار له إلا سلطة ظاهرة فانية.(٩)

أثر الاعتزال في النهضة الفكرية :

لم يكن نشاط المعتزلة محصوراً في تناول الجانب العقدي وحده، بل امتد ليسري في معظم ما أسهموا به في قضايا الفكر والمجتمع والثقافة، ولعل المتتبع لنتاج أعلام المعتزلة وإسهاماتهم يرى ألوانا من التفكير الفلسفي الذي يحمل طابعهم التحرري، ونظرتهم التحليلية التي لا تسلم بما يتداوله الناس أو يردده العلماء دون تمحيص وتحرير وإعادة نظر، ولا ينساقون وراء الأفكار الشائعة، والقناعات المسلم بها دون دليل يدعمها، وفكر صائب يسندها ويشهد بصحتها.

لقد كانت المباديء العامة للاعتزال دعوة تحررية هدفها تمجيد العقل البشري، وتنبيه الأمة على ضرورة الاسترشاد به في حياتها الفكرية ومختلف جوانب النشاط الإنساني على ربوعها، وهي دعوة كان أحرى بمن قاموا على إذكائها، والتنبيه إليها أن ينظر إلى جهدهم نظرة تقدير وتشجيع، بيد أنها أثارت على الداعين إليها التنقص والاتهامات الباطلة، ولم يمكن لها حضور في الأوساط الرسمية في دولة الخلافة إلا عنما تبنى دعوتها بعض خلفاء بني العباس، وكان ذلك التأييد مصدر سخط ونقمة على حركة الاعتزال فيما بعد، فعندما تخلى الساسة عن تأييدها انقلب عليها خصومها، وألصقوا بها

تهما باطة، وشنوا عليها حملات ظالمة. ومع ذلك كله فقد أنصف العقلاء من المفكرين القدامى والمحدثين مفكري المعتزلة وتلقوا جهدهم الفكري عامة والعقدي منه على جهة الخصوص بالتقدير والإكبار. لقد تمثلت جهود المعتزلة في ميدان التحرر الفكري في جملة مظاهر من أهمها :

١- الجرأة في مناقشة مسائل العلم، وقضايا المعرفة في شتى ميادين النظر والفكر، دون تقيد بالآراء السابقة، أو تسليم بأقوال العلماء مهما بلغت شهرتهم ورتبتهم بين الناس، وكان لهذا المظهر خطره في جوانب عديدة ؛ إذ نهضت حركة فكرية واعدة جعلت تراجع كثيراً من الآراء المتداولة في علوم العقيدة والشريعة بمختلف فروعها فضلا عن غيرها من ميادين العلم والمعرفة...، فقد ناقش المعتزلة أقوال مشاهير المفسرين واختلفوا معهم في أمور كثيرة، وحملوا على فريق منهم رأوا أنه جانبوا الصواب، وأخرجوا النص القرآني عن دلالة لغة العرب، كما اختلفوا مع علماء الحديث، وأنكروا كثيراً من مروياتهم ؛ إذ رأوها لا تتفق مع أصول العقيدة، وتتصادم مع نصوص الكتاب العزيز، ومع منطق العقل السديد، كما ناقش علماء المعتزلة رواة الشعر والإخباريين، وسخروا منهم لاطمئنانهم إلى مرويات تدخل في باب الخرافات والأكاذيب، وتتنافي مع الحقيقة والمعقول...، ونستطيع أن نؤكد على سبيل الإجمال أن المعتزلة اصطحبوا نظرتهم الناقدة، وروحهم المتحررة في شتى القضايا والمسائل التي بحثوها، أو توجهت إلى تناولها عقولهم الكبيرة !! .

٢- كانت الحقائق المقنعة، والأسباب المعقولة هدفاً ساميا سعى علماء المعتزلة إلى بلوغه، وثمرة للجهد الفكري الدائب الذي كان سمة مهمة من سمات منهجهم في البحث والتدقيق .ومن أمثلة ذلك ما يسوقه الجاحظ في كتابه " الحيوان " تنويها بمنحى أستاذه أبي إسحاق النظام، ودقة تأمله، وصواب استنتاجه يقول " : وقال مثنى بن زهير ذات يوم : ما تلهَّى الناس بشيء مثل الحمام، ولا وجدنا شيئاً مما يتخذه الناس ويلعب به ويلهى به يخرج من أبواب الهزل إلى أبواب الجد كالحمام – وأبو إسحاق حاضر – فغاظه ذلك وكظم على غيظه، فلما رأى مثنى سكوته عن الردِّ عليه طمع فيه فقال : يبلغ والله من كرم الحمام ووفائه وثبات عهده وحنينه إلى أهله أني ربما قصصت الطائر بعد أن طار عندي دهراً، فمتى نبت جناحه كنباته

الأول – لم يدْعه سوء صنعي إليه أن يذهب عني...، ولربما بعته فيقصه المبتاع حينا فما هو إلا أن يجد في جناحه قوة على النهوض حتى أراه أتاني جادفاً أو غير جادف، وربما فعلت ذلك به مراراً كثيرة كل ذلك ولا يزداد إلا وفاءً. !! .قال أبو إسحاق : أما أنت فأراك دائباً تحمده وتذم نفسك ! ولئن كان رجوعه إليك من الكرم إن إخراجك له من اللؤم !! ثم قال : خبرني عنك حين تقول : رجع إليَّ مرة بعد مرة ؟ وكلما زهدت فيه كان فيَّ أرغب ؟ وكلما باعدته كان ل–ي أطلب ؟. إليك جاء ؟ !. وإليك حنَّ ؟!. أم إلى عشه الذي درج منه؟!. وإلى وكره ال–ذي ربِّيَ فيه؟!. أرأيت لو رجع إلى وكره وبيته ثم لم يجدك، وألفاك غائباً أو ميتا، أكان يرجع إلى موضعه الذي خلَّفه ؟ ! وعلى أنك تتعجب من هدايته وما لك فيه مقال غيره. فأما شكرك على إرادته لك فقد تبين خطاؤك فيه، وإنما بقي الآن حسن الاهتداء إلى الوطن [١٠] "!!

فانظر كيف لم يدع النظام هذا الموقف الذي كان يمكن أن يمر دون تدخل منه أو اهتمام بشأنه، ولكنه لم يفوت الفرصة لتصحيح تصور خاطيء، وتقرير أمر واقع، مما يؤكد الرؤية المتحررة للمعتزلة، والرغبة في تعقب الأخطاء، وتسفيه الأدعياء في أي موقف، وفي أي سياق.

٣- الاهتمام بتحرير عقول العامة، وتنحية الخرافات المسيطرة على عقولهم، ولعل في هذه القصة التي يحكيها المرتضي عن ثمامة بن أشرس ما يشير إلى تلك الحقيقة يقول : وعن ثمامة قال : كان المأمون قد همَّ بلعن عليٍّ على المنابر، وأن يكتب بذلك كتابا يقرأ على الناس ! فنهاه يحيى بن أكثم عن ذلك، وقال : يا أمير المؤمنين إن العامة لا تحتمل ذلك سيما أهل خراسان، فلا تأمن أن تكون لهم نفرة، فلا تدري ما عاقبتها. والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه في أمر معاوية، ولا تظهر أنك تميل إلى فرقة من الفرق. فركن المأمون إلى قوله، فلما دخلتُ عليه قال : يا ثمامة . قد عرفت ما كنا فيه ودبَّرناه في أمر معاوية، وقد عارضنا تدبير هو أصلح في تدبير المملكة وأبقى ذكراً في العامة...، ثم أخبرني بأن يحيى بن أكثم خوَّفه العامة. فقلت يا أمير المؤمنين : والعامة في هذا الموضع الذي وضعها فيه يحيى بن أكثم. والله لو وجهت إنسانا على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرة آلاف منها !! والله يا أمير المؤمنين : ما رضي الله أن سوَّاها بالأنعام حتى جعلها أضل منها. فقال

: " إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا " والله يا أمير المؤمنين : لقد مررت منذ أيام في شارع وأنا أريد الدار فإذا إنسان قد بسط كساءً، وألقى عليه أدوية، وهو قائم ينادي : هذا دواءٌ لبياض العين والغشاوة والظلمة – وإن إحدى عينيه لمطموسة والأخرى موشكة !! والناس قد اجتمعوا فدخلت في غمار تلك العامة، ثم قلت يا هذا : إنَّ عينيك أحوج من هذه الأعين إلى العلاج، وأنت تصف هذا الدواء، وتخبر أنه شفاءٌ لوجع العين فلم لا تستعمله ؟! فقال : أنا في هذا الموضع منذ عشرين سنة فما مر بي شيخ أجهل منك! قلت وكيف ذاك ؟ قال : يا جاهل أتدري أين اشتكت عيني ؟ قلت : لا. فقال : اشتكت بمصر ! عين اشتكت بمصر وكيف ينفعها دواء بغداد ؟ !قال فأقبلت الجماعة قالوا : ص–دق الرجل. أنت جاهل ! فقلت لا والله ما علمت أن عينه اشتكت بمصر. ! فما تخلصت منهم إلا بهذه الحجة [١١] " !

ويروي البغدادي في معرض ترجمته لثمامة هذه الحكاية يقول " : لما غضب الرشيد على ثمامة دفعه إلى " سلام الأبرش " وأمره أن يضيِّق عليه، ويدخله بيتاً ويطيِّن عليه ويجعل فيه ثقباً ! ففعل دون ذلك. وكان يدس عليه الطعام...، فجلس" سلام "عشيَّةً يقرأ في المصحف فقرأ : (ويلٌ يومئذٍ للمكذَّبين) بفتح الذال. فقال له ثمامة : إنما هو (للمكذِّبين) بكسر الذال وجعل يشرحه له ويقول : المكذَّبون هم الرسل، والمكذِّبون هم الكفار. ..فقال : قد قيل لي إنك زنديق ولم أقبل !! ثم ضيَّق عليه أشدَّ الضيق !! قال : ثم رضي الرشيد عن ثمامة وجالسه. فقال : أخبروني: من أسوأ الناس حالاً ؟ فقال كل واحد شيئاً. قال ثمامة. فبلغ القول إليَّ فقلت : "عاقل يجري عليه حكم جاهل ". !! قال : فتبينت الغضب في وجهه، فقلت يا أمير المؤمنين : ما أحسبني وقعت بحيث أردت ؟. قال : لا والله. فاشرح. فحدَّثته بحديث " سلام " فجعل يضحك حتى استلقى ! وقال : صدقت لقد كنت أسوأ الناس حالا [١٢] "

ونستطيع على ضوء ما قدمنا أن نؤكد إجمالا أن حركة الاعتزال بعثت في الفكر الإسلامي روحا جديدة، ونقلته إلى طور جديد، واستحدثت له مناهج وقوانين ساعدت على الدفع به قدما ليساير التيارات الفكرية التي توافدت على دولة الخلافة الإسلامية، انطلاقا من واقعها الذي اصطرعت على ربوعه موروثات شعوب شتى وأمم ذات أقدام راسخة في الفكر والتحضر.

الصبغة الأدبية لتراث المعتزلة:

أدرك أقطاب حركة الاعتزال أنهم بصدد إقناع سامعيهم ومتلقي فكرهم بما يقولون ومن ثم كانت قوة العارضة، وسلامة العبارة، والمهارة في التعبير قاسماً مشتركا بين نتاج أعلام حركة الاعتزال، وعلى الرغم من أن أكثر إبداعاتهم الأدبية تندرج في فنون الخطابة والمناظرة أي أنها من الأدب النثري على الإجمال فإنها لم تخل من مسحة أدبية لها خصوصيتها وبراعتها، ولها في الوقت ذاته عشاقها ومحبُّوها. فقد استخدموا في نتاجه–م النثري وسائل التأثير والإمتاع : إمتاع الحاسة الفنية والأدبية، وإمتاع العقل في آن !!.

ولو استعرضنا نماذج من تراث أعلام المعتزلة الأدبي لتبين لنا صدق هذا الاستنتاج الذي أسلفنا بيانه. هذا فضلا عن أن عددا من رموز المعتزلة رُزِقوا موهبة شاعرة، ولكنهم طوَّعوها لنزعتهم العقلية فبدت معالجاتهم الشعرية من طراز فريد، تخدم فكرهم وتلبي منازعهم. وحتى لا يتشعب بنا البحث نقتصر على الوقوف على بعض ما أسهم به أعلام المعتزلة ومشاهيرهم، ونخص من بينهم ثلاثة هم : أبو الهذيل العلاف، وأبو إسحاق النظام، وأبوعثمان الجاحظ . ونتاول دور كل علم من هؤلاء – في إيجاز – على هذا الترتيب.

أبو الهذيل العلاف :

هو محمد بن الهذيل العبدي، شيخ المعتزلة، ومقدم الطائفة، ومقرر الطريقة والمناظر عليها [١٣] كان نسيج وحده، وعالم دهره، لم يتقدمه أحد من الموافقين له ولا من المخالفين...، وكان يقطع الخصم بأقل كلام ! يقال : أسلم على يديه زيادة على ثلاثة آلاف رجل [١٤] . وقال المبرد : ما رأيت أفصح من أبي الهذيل والجاحظ، وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة، شهدته في مجلس وقد استشهد بثلاثمائة بيت، وقال ثمامة : وصفتُ أبا الهذيل للمأمون فلما دخل عليه جعل المأمون يقول لي : يا أبامعن، وأبو الهذيل يقول : يا ثمامة ! فكدتُ أتَّقدُ غيظاً ! فلما احتفل المجلس استشهد في عُرض كلامه بسبعمائة بيت ! فقلتُ : إن شئتَ فكنني، وإن شئتَ فسمني !!. وحكى يحيى بن بشير الأرَّجاني عن النظام قال : ما أشفقتُ على أبي الهذيل قط في استشهاد إلا يوم قال

له الملقب ب– " برغوث " أسألك عن مسألة ؟ فرفع أبو الهذيل نفسه عن مكالمته فقال برغوث :

وما بُقْيا عليَّ تركتُماني ولكن خفتما صرد النبال

ولم أعرف في نقيضه ما يتمثَّل به ! فبرز أبو الهذيل وقال : لا بل كما قال الشاعر :

وأرفع نفسي عن " بُجيلة " إنني

أذلُّ بها عند الكلام وتشرف !! (١٥)

" وحكى سليمان الرقي أن أبا الهذيل لما ورد " سُرَّ من رأى " نزل في غرفة إلى أن يطلب له داراً تصلح له، قال فمررت به فقلتُ له : يا أبا الهذيل أتنزل في هذا المنزل ؟! فأنشدني :

يقولون زين المرء يا " ميَّ " رحله

ألا إن زين الرحل يا " ميَّ " راكبه

وفي هذه الأخبار التي رويناه ما يؤكد تأصل الموهبة الأدبية، وسعة الرواية للشعر والدراية بدقائقه وما لطف من معانيه لدى أبي الهذيل ؛ مما يدل دلالة واضحة على تمتع الرجل بقدر كبير من الاستعداد الأدبي. وهذا نموذج نسوقه من مناظرات أبي الهذيل ومواقفه التي دافع فيها عن الإسلام ورد على شبهات المتشككين حكى المرتضى عن أبي الهذيل أن رجلا أتاه فقال له :

" أشكل علي أشياء من القرآن، فقصدت هذا البلد فلم أجد عند أحد ممن سألته شفاءً لما أردته، فلما خرجت في هذا الوقت قال لي قائل : إن بغيتك عند هذا الرجل فاتق الله وأفدني ! قال أبو الهذيل : فماذا أشكل عليك ؟ قال : آيات من القرآن توهمني أنها متناقضة، وآيات توهمني أنها ملحونة. قال : فماذا أحب إليك ؟ أجيبك بالجملة أو تسألني عن آية آية ؟ قال : بل تجيبني بالجملة. فقال أبو الهذيل : هل تعلم أن محمدا كان من أوسط العرب، وغير مطعون عليه في لغته، وأنه كان عند قومه من من أعقل العرب فلم يكن مطعونا عليه ؟ فقال : اللهم نعم. فقال أبو الهذيل : فهل تعلم أن العرب كانوا أهل جدل ؟ قال : اللهم نعم. قال : فهل اجتهدوا في تكذيبه ؟ قال : اللهم

نعم. قال : فهل تعلم أنهم عابوا عليه بالمناقضة واللحن ؟ قال : اللهم لا. قال أبو الهذيل : فتدع قولهم مع علمهم باللغة، وتأخذ بقول رجل من الأوساط ؟!. فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. ثم ق–ال : كفاني هذا وانصرف !. " (١٦)

أبـو إسحاق النـظَّام:

الأديب الشاعر، والعالم المفكر " شيخ من كبار شيوخ المعتزلة وأئمتهم، متقدم في العلوم، شديد الغوص على المعاني...، كان من صغره يتوقد ذكاءً، ويتدفق فصاحة، حكي أن أباه جاء به وهو صغير إلى الخليل بن أحمد ليعَلِّمه فقال له الخليل يمتحنه – وفي يده قدح زجاج – يا بني صف لي هذه الزجاجة. قال بمدحٍ أم بذمّ ؟ قال: بمدح. قال : تريك القذى، ولا تقبل الأذى، ولا تستر ما ورا !. قال : فذمَّها. قال: يسرع إليها الكسر، ولا تقبل الجبر ! قال : فصف لي هذه النخلة – وأومأ إلى نخلة بداره – قال بمدح أم بذم ؟ قال : بمدح. قال : حلوٌ جناها، باسق منتهاها، ناضر أعلاها !! قال : فذمها. قال : صعبة المرتقى، بعيدة المجتنى، محفوفة بالأذى !! قال الخليل : يا بُنيَّ. نحن إلى التعليم منك أحوج !! " (١٧) . ويعلق المرتضي على هذه الرواية بقوله : " وهذه بلاغة من النظام حسنة ؛ لأن البلاغة وصف الشيء ذما أو مدحا بأقصى ما يقال فيه " (١٨)، ومن كلام النظام :

" العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فإن أعطيته كُلك فأنت من إعطائه لك البعض على خطر " (١٩). ويقرظه المرتضي بقوله : " فأما أبو إسحاق بن سيار النظام فإنه كان مقدما في العلم بالكلام، حسن الخاطر، شديد التدقيق والغوص على المعاني. قيل للنظام : ما الاختصار ؟ فقال : الذي اختصاره فساد...، وذكر النظام عبد الوهاب الثقفي فقال : هو أحلى من أمن بعد خوف، وبرءٍ بعد سقم، وخصب بعد جدب، وغنى بعد فقر، وطاعة المحبوب، وفرج المكروب، ومن الوصل الدائم مع الشباب الناضر..، وللنظام شعر كثير صالح فمنه :

توهمـه طرفـي فآلـم خدَّه فصار مكان الوهم من نظري أثرُ
وصافحه قلبي فآلم كفـه فمن صفح قلبي في أنامله عقر
ومر بقلبي خاطرا فجرحتـه ولم أر جسما قط يجرحه الفكر

يمر فمن لين وحسن تعطُّفٍ يُقال به سكر وليس بـه سُكر

ويقول ابن المعتز عنه :

" حدثني ابن الكوفي قال : كان مذهب إبراهيم النظام في أول أمره الشعر، وانتقل إلى الكلام ومذهب أبي نواس الكلام وانتقل إلى الشعر !! ومما يستحسن من شعرالنظام قوله :

ألا يا خير من رأت العيون نظيرك لا يحس ولا يكـون
وفضلك لا يحد ولا يبـارى ولا تحوي حيازته الظنـون
خلقت بلا مشاكلة لشـيء وأنت الف–وق والثقلان دون
كأن الملك لم يك قبل شيئاً إلى أن قام بالملك الأمـين

وهو القائل :

ما زلتُ آخذ روح الدَّنِّ ف–ي لطف وأستبيح دما من غير مذبوح
حتى انثنيت ولي روحان في جسدي والزق مطرح جسم بلا روح

وشعره قليل وكان يستقي الشعر من الكلام والجدل " (٢٠)

وكان الجاحظ يقول : الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له، فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحاق النظام !! " (٢١). وتوفي النظام سنة إحدى وعشرين ومائتين، وله من العمر ست وثلاثون سنة . (٢٢)

أبـو عثمان الجاحظ:

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، وُلِد بالبصرة سنة ١٦٠ هـ على وجه التقريب، ونشأ بها، ونهل من الثقافات المتنوعة التي أتيحت بها في عصره، ثم رحل إلى بغداد واتصل بالخلفاء، وولي ديوان الرسائل ولكنه لم يطق قيود الوظيفة ورسومها فاستعفى وتفرغ للكتابة، والجاحظ أشهر من أن نشغل أنفسنا في هذه الدراسة المتصلة بالمعتزلة ودورهم في الأدب ونقده بالترجمة له أو التعريف تفصيلا به، وقد عُمِّر أبوعثمان إلى ما يربو على التسعين وكانت وفاته سنة ٢٥٥ هـ. ولقب بالجاحظ لجحوظ عينيه (أي نتوئهما).

كان الجاحظ من خيرة مثقفي عصره، بل كان موسوعة حوى عقله كثيراً من المعارف والثقافات، بعضها يتصل بلغة العرب وتاريخهم وأدبهم وعوائدهم وأخبارهم، وبعضها يتصل بالثقافات الوافدة التي غدت متاحة بعد اختلاط العرب بالفرس والروم والهنود وغيرهم، كما كان الجاحظ متضلعا في علم الكلام ومباحث الفلسفة، وكان من كبار دعاة الاعتزال، ومنظريه، حتى ذكر أنه كوَّن فرقة ارتبطت به ونسبت إليه عرفت ب " الجاحظية ". وللجاحظ كما هو ذائع مشهور مؤلفات ورسائل كثيرة أثرى بها تراثنا الفكري عامة والأدبي على جهة الخصوص.

وإيثاراً للإيجاز أكتفي هنا باستعراض بعض نتاجه الكتابي الذي يدل على تأصل الموهبة الأدبية، وريادة ذلك العلم الفذ للكتابة الفنية في أدبنا العربي، وسأقف بالقارىء مع مقتطفات من رسائله، وبعضا من الفصول التي دبجها بيانه الرائع في كتاب البخلاء، وهو – فيما أرجح – من أقوى نتاجه الأدبي دلالة على موهبته الأدبية ؛ إذ انفسحت له في ذلك المؤلَّف – بحكم موضوعه – المجال لإظهار براعته وإطلاق قدراته، لأن موضوع الكتاب لم يقيد الجاحظ بحقائق يمحصها، أو مسائل فكرية أو عقدية، بل كان تناوله في البخلاء منصبا على نوازع من ظواهر النفس الإنسانية، عرضها من خلال تصوير أحوال البخلاء والممسكين والطفيليين وأضرابهم، ومن ثم أطلق لملكاته الأدبية العنان لتبتكر وتبدع، بعيداً عن قيود العلم وتمحيصاته، فظهرت في كتاب البخلاء قدرة أبي عثمان على حبك القصص، وحسن عرضها، وإبرازها في قالب مشوق. هذا ولقد حرص الجاحظ على إضفاء طابع الواقعية على حكاياته عن البخلاء، وكان في هذا التوجه سابقاً لعلماء عصره وكتاب زمنه، ومن أبرز ما يؤكد ذلك تنبهه إلى أهمية الأداء الذي يصور هيئة المتحدث ولغته التي يعبر بها، واللهجة التي اعتادها أو اللكنة التي ينفرد بها..إلخ. يقول أبو عثمان في مقدمة كتاب البخلاء :

" وإن وجدتم في هذا الكتاب كلاما غير معرب، ولفظاً معدولا عن جهته – فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب، ويخرجه من حده، إلا أن أحكي كلاما من كلام متعاقلي البخلاء، وأشحاء العلماء ك " سهل بن هارون " وأشباهه" [٢٣].

وهذه صورة رسمها الجاحظ لواحد من أهل خراسان كان ضنينا بما عنده، حريصا على ألا يشاركه طعامه أو معروفه أحد. يقول عنه الجاحظ :

" كان لا يأكل إلا ما لا بد منه، ولا يشرب إلا ما لا بد منه. غير أنه إذا كان في

غداة كل جمعة حمل معه منديلاً فيه جرذقتان، وقطع لحم سكباج مبرد، وقطع جبنٍ وزيتونات، وصُرَّة فيها ملح، وأخرى فيها أُشنان، وأربع بيضاتٍ ليس منها بُدٌّ، ومعه خلال، ومضى وحده، حتى يدخل بعض بساتين الكرخ، وينظر موضعا تحت شجرة وسط خضرة وماءٍ جارٍ، فإذا وجد ذلك جلس، وبسط بين يديه المنديل وأكل من هذا مرة ومن هذا مرة، فإن وجد قيِّم ذلك البستان رمى إليه بدرهم، ثم قال : اشتر لي بهذا، أو أعطني بهذا رطباً إن كان في زمان الرطب، أو عنباً إن كان في زمن العنب...، فإن أتاه به أكل كل شيء معه، وكل شيء أُتِيَ به !! ثم تخلل وغسل يديه، ثم تمشَّى مقدار مائة خطوة، ثم يضع جنبه فينام إلى وقت الجمعة ثم ينتبه فيغتسل ويمضي إلى المسجد !. هذا كان دأبه في كل جمعة " (٢٤)

وهكذا رسم الجاحظ صورة لهذا الرجل الحريص، وكيف كان يجتهد في أن يوسع على نفسه في صبيحة كل يوم جمعة، وكأنه يرفه عن نفسه، ويكسر حدة التقدير والإمساك، بيد أن الذي يعنينا هنا هو مقدار نجاح الجاحظ في التعبير والتصوير، بتلك الصورة الدقيقة، التي ل-م تترك من حالة ذلك الخراساني لمحة أو مسلكا إلا رصدته في دقة، ونقلته إلى المتلقي وكأنه يشهد الحدث، ويراه رأي العين.

وكما كان الجاحظ أديبا بارعا، وكاتبا ألمعيا اشتهر إلى جانب ذلك بذوقه الأدبي وحسه النقدي، وله مشاركات وإسهامات مذكورة في ميدان النقد الأدبي، وله مذهب مشهور في قضية اللفظ والمعنى، سنلمح إليه في ختام هذه الدراسة.

جهود المعتزلة في الدراسات النقدية :

لحركة الاعتزال ناحية أدبية لا تقل في أهميتها عن الناحية الفكرية، ولو أردنا أن نفسر أسباب ذيوع مذهب الاعتزال، ونتعرف على الأسباب الحقيقية التي ساعدت على نجاحه، ومكنت له حتى صار المذهب المعتمد لدولة الخلافة العباسية في مرحلة من أخصب مراحل ازدهارها وقوتها - لتبين لنا أن ذلك يعود للأسباب التالية :

١- استقامة المنهج الفكري الذي صدر عنه دعاة الاعتزال، وهو منهج يتسم كما ألمحنا بالتحرر من الأفكار السابقة، وكذا النضج العقلي، ومن ثم فقد ارتادوا مختلف الآفاق، وخاضوا بمنهجهم تلك اللجج الصعاب، دون أن يعتري آراءهم الوهن، أو تنال من صوابها ومصداقيتها أطروحات تطاولها دقة وسلامة منهج.

٢- استوعب دعاة الاعتزال ثقافات كثيرة، وحصلوا علوما ومعارف شتى، وكانوا في مجموعهم أنماطاً فؤيدة في سعة الثقافة وتعدد الخبرات. وإن أناساً على هذه الدرجة من الوعي والحصافة لمن حقهم أن تكون لهم وجهات نظر مستقلة، ومواقف إزاء مختلف القضايا التي ثقفوها، وخبروا دقائقها، ما دام منهجهم سديداً وإلمامهم بحقائق العلوم موفوراً.

٣- كان زعماء الاعتزال في عصر ازدهار المذهب ذوي مواهب أدبية فذة استطاعوا بوساطتها الانتصار لآرائهم، وإفحام خصومهم ومعارضيهم، وسيتضح لنا من خلال استعراض آرائهم أنهم كانوا على جانب لا يستهان به من الفصاحة وقوة العارضة، والتمكن من البيان.

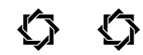

وتتمثل جهود المعتزلة في النقد الأدبي في جملة إسهامات من أهمها :

صحيفة بشر بن المعتمر :

وهي وثيقة نقدية مهمة سبق بها بشر نقاد عصره وقرر فيها أصولا تدل على بعد نظره وريادته في ذلك الميدان. ونعرف به باديء ذي بدء في عجالة. فهو أبوسهل بشر بن المعتمر الهلالي رئيس معتزلة بغداد [٢٥] ولبشر أشعارٌ كثيرة يحتج فيها على أصحاب المقالات. ذكر الجاحظ أنه لم ير أحداً أقوى على المخمس والمزدوج مما قوي عليه بشر، وأنه كان في ذلك أكثر وأقدر من أبان اللاحقي ، وهو القائل :

إن كنت تعلم ما أقول وما تقول فأنت عالـم
أو كنت تجهل ذا وذا ك فكن لأهل العلم لازم
أهل الرياسـة من ينازعهم رياستهم فظالـم
سهرت عيونهم وأنت عن الذي قاسوه حالـم
لا تطلبنَّ رياسـة بالجهل أنت لها مخاصم
لولا مقامهم رأيت الدين مضطرب الدعائم

أما الصحيفة التي هي محور كلامنا في هذا المقام فقد رواها الجاحظ في البيان

والتبيين [٢٦] ويفهم من سياق روايته لها أنها كانت شيئا جديداً لم يسبق للعلماء تناول ما طرحه فيها بشر، وأنها كانت تحديا لما ردده المعلمون للبلاغة وفنون القول من أهل التقليد الذين يحلوا لهم ترديد المأثورات التي لاكتها الألسن، ومجتها الأسماع، وسئمتها العقول والنفوس يحكي الجاحظ أن بشر بن المعتمر مر ب " إبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب " وهو يعلم فتيانهم البلاغة، فوقف بشر، فظن إبراهيم أنه وقف ليستفيد، أو ليكون رجلاً من النظارة، فقال بشر :

أضربوا عما قال صفحا، واطوا عنه كشحاً، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه..!! " [٢٧] ويتضح من سياق هذه الرواية أن بشراً لم ترقه طريقة إبراهيم بن جبلة فانتقصها ودعا إلى إهمالها، وطرح البديل الذي رآه جديراً بأن يعول عليه، ويلتفت إليه.

تبدأ صحيفة بشر بتحليل دقيق لمسألة التهيُّؤ النفسي للأديب، وأثر ذلك في جودة النتاج الذي يصنعه. يقول :

" خُذْ من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها إياك ؛ فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهراً، وأشرف حسباً، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرَّة : من لفظ شريف، ومعنى بديع. واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصداً، وخفيفاً على اللسان سهلا.. " [٢٨]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن المدبر في رسالته العذراء قد تأثر بكلام بشر في صحيفته، ونقل عنه ؛لأنه متأخر عنه زمنا، فقد توفي بشر سنة عشر ومائتين، في حين كانت وفاة ابن المدبر سنة تسع وسبعين ومائتين، ويتضح من الموازنة بين ما أثبته ابن المدبر في رسالته أنه حذا حذو بشر، ونهج سبيله، بل كان ينقل عباراته بنصها يقول ابن المدبر فيما يقترب من عبارة بشر التي أوردناها آنفا ، وفي سياقها نفسه :

" وارتصد لكتابك فراغ قلبك، وساعة نشاطك ، فتجد ما يمتنع عليك بالكد والتكلف ؛ لأن سماحة النفس بمكنونها، وجود الأذهان بمخزونها إنما هو مع الشهوة المفرطة للشيء والمحبة الغالية فيه... " [٢٩] والفارق الواضح بين العبارتين أن ابن المدبر قصد بكلامة جنس الكتابة، حيث كان يتحدث عن فن الرسائل أما بشر فكان

كلامه عاما يشمل فنون القول جميعا، وهذا يؤكد سبق بشر إلى تقرير هذا الأصل النقدي ن ومن ثم سبق علماء المعتزلة وأعلامها إلى هذه الميادين.

وبعد أن يفرغ بشر من قضية التهيؤ والاستعداد، يحذر شداة الإبداع الأدبي من التعقيد والإغراب، ويهيب بهم أن يتوخوا السهولة والقرب ؛ صيانة لمعانيهم، وإبقاءً على رونق بيانهم، يقول :

"... وإياك والتوعر، لأن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك " (٣٠)

ثم ينتقل بشر للحديث عن الألفاظ والمعاني، وأهمية حصول التواؤم بينها وهو مذهب يقترب فيه كثيراً من أبي عثمان الجاحظ ، يقول بشر : " ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظاً كريماً ؛ فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، وترتهن نفسك بملابستهما، وقضاء حقهما " (٣١)

وانطلاقاً من هذا المفهوم الواضح المقنع تجاه الألفاظ والمعاني يرتب بشر الأدباء في مراتب متباينة تبعاً لمقدرة كُل فئة منهم على الوفاء بمتطلبات ذلك المذهب على النحو التالي :

المرتبة الأولى :

" أول الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهراً مكشوفا، وقريبا معروفا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت... والمعنى الشريف ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العاميّ والخاصيّ، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام " !! (٣٢)

ونستشف من حديث بشر عن هذه المرتبة أن الأدب عنده صناعة أساسها المهارة

في عرض المضمون الذي يقصد الأديب تجليته، ويستهدف إيصاله للسامع أو القاريء، أيا كان هذا المضمون، بعد أن يراعي الأديب مقامات المخاطبين، ومقتضيات الأحوال، ونستشف كذلك أن بشراً لا يعتد في تقويم الأثر الأدبي بما تتضمنه معانيه من سمو أو اتضاع بل بمبلغ حذق الأديب في التعبير عن المعنى وإعطائه اللفظ اللائق به. وتلك نظرة نقدية دقيقة سبق بشر بتقريرها أهل عصره، واستحق أن يعدَّ ضمن المؤصلين لتلك الحقائق المهمة في نقدنا العربي القديم.

المرتبة الثانية :

" فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك، ولا تعتريك، ولا تسنح لك عند أول نظرك، وفي أول تكلفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها، ولم تصر إلى قرارها، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها، ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها، نافرة من موضعها – فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها ؛ فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد...، وإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعا، ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك وما لك – عابك من أنت أقل عيباً منه، ورأى من هو دونك أنه فوقك !!...، فإن ابتليت بأن تتكلف القول، وتتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة، وتعصَّى عليك بعد إجالة الفكرة – فلا تعجل ولا تضجر، ودعه بياض يومك، أو سواد ليلك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك؛ فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة، إن كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرق " (٣٣)

وإذا كانت المرتبة الأولى هي مرتبة الأديب المطبوع الذي تنسال عليه المعاني وتتسابق في مجاوبته الألفاظ، ويستطيع بما مُنِح من حكمة وبصيرة أن يصرِّف القول أنَّى شاء، وكيف أراد – فإن بشراً لم يقصر صناعة الأدب على هذا الصنف من المطبوعين، ويطرد عنها سواهم، ولكنه يجعل في المرتبة التالية لهم طائفة من متعاطي الصناعة الذين لا تواتيهم، ولا تطيعهم إلا في الفينة بعد الفينة، وبعد تروٍّ ومعاودة تأمل ونظر وينصح بشر هذا الصنف ألا يضجروا أو يتعجلوا، وأن يرفقوا بقرائحهم، ويمهلوها حتى تسمح بمكنونها، ويطيع عصيها، شريطة أن يوجد لدى كل منهم استعداد أدبي، ودلائل موهبة حبيسة. أما إذا لم يكن لهذه الموهبة وجود فأحرى بالعاقل أن ينفض يديه من هذه

الصناعة ؛ إذ لن يعيبه بافتقادها أحد. فليت أدعياء الأدب والمتطفلين عليه – وما أكثرهم في زمننا هذا – يقنعون بنصيحة بشر، ول–و قد فعلوا لأحسنوا لأنفسهم وللأدب على سواء !!.

المرتبة الثالثة :

"... فإن تمنع عليك من غير حادث شغل عرض، ومن غير طول إهمال فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك ؛ فإنك إن لم تشته، ولم تنازع غليك إلا وبنكما نسب، والشيء لا يحنُّ إلا إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات ؛ لأن النفوس لا تجود بمكنونها، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع المحبة والشهوة، فهكذا هذا " (٣٤)

بهذا التحليل الواعي والفهم الناضج يلخص بشر بن المعتمر في صحيفته أهم مقومات صناعة الأدب، وأسس المهارة فيها، ويصنف الأدباء من حيث مراتبهم وقدراتهم، قياسا على ما يتأتى لكل منهم من أصول الصناعة، وما هو مركوز في طبعه من موهبة.

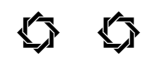

ثانيا: تحليل النظام لظاهرة انتحال الشعر :

وتلك من أهم القضايا التي أسهم رموز المعتزلة في معالجتها، وتفسير أسبابها ومداخلها، ويعدُّ بحث المعتزلة لهذه القضية جزءاً من حملتهم الشاملة على الخرافات التي تشيع في أوساط العامة، وتصديهم لكثير من تلك الاعتقادات المغلوطة التي يميل العامة إلى تصديقها، دون إعمال العقل، أو إنعام النظر، وأبو إسحاق النظام كان معنيا بنقد ما شاع في أوساط العامة من شعر على ألسنة الجن والغيلان، ومن ثنايا ذلك كشف النقاب عن جانب مهم في مسألة انتحال الشعر بصفة عامة، وسنرى أن تحليله للظاهرة يتسم بالدقة والموضوعية، يقول الجاحظ مقررا رأي أستاذه أبي إسحاق :

"... وكان أبو إسحاق يقول – في الذي تذكر الأعراب من عزيف الجنان وتغول الغيلان – : أصل هذا الأمر وابتداؤه أن القوم لما نزلوا بلاد الوحش عملت فيهم الوحشة، ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء والبعد من الأنس – استوحش بالتفكير. والفكر

ربما كان من أسباب الوسوسة...، وإذا استوحش الإنسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير، وارتاب، وتفرق ذهنه، وانتقضت أخلاطه، فرأى ما لا يرى، وسمع ما لا يسمع، وتوهم على الشيء اليسير الحقير أنه عظيم جليل، ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعراً تناشدوه، وأحاديث توارثوها، فازدادوا بذلك إيمانا، ونشأ عليه الناشيء، وربِّي به الطفل، فصار أحدهم حين يتوسط الفيافي وتشتمل عليه الغيطان في الليالي الحنادس فعند أول وحشة وفزعة، وعند صياح بوم ومجاوبة صدى قد رأى كل باطل، وتوهم كل زور، وربما كان في أصل الخلق والطبيعة كذّابا نفاجا، وصاحب تشنيع وتهويل، فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة، وعند ذلك يقول رأيت الغيلان، وكلمت السعلاة، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول رافقتها، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول تزوجتها !!.

قال عبيد بن أيوب :

فلله در الغول أي رفيقــة لصاحب قفر خائف متقتر

وقال :

أهذا خليل الغول والذئب والذي يهيتم بربات الجال الهراكل

وقال :

أخو قفرات حالف الجن وانتفى من الجن حتى قد تقضت وسائله

لـه نسب الإنسي يعرف نجله وللجن منـه خلقـه وشمائلـه

ومما زادهم في هذا الباب، وأغراهم به، ومد لهم فيه أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وهذه الأخبار إلا أعرابيا مثلهم، وإلا عاميا لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق أو الشك، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه الأخبار قطّ...، وإما أن يلقوا راوية شعر وصاحب خبر فالرواية عنده كلما كان الأعرابي أكذب في شعره كان أطرف عنده، وصارت روايته أغلب، ومضاحيك حديثه أكثر ؛ فلذلك صار بعضهم يدعي رؤية الغول، أو قتلها، أو مرافقتها، أو تزويجها، وآخر يزعم أنه رافق في مفازة نمراً فكان يؤاكله ويشاربه.. !! (٣٥)

وهكذا يتضح لنا أن نظرات المعتزلة النقدية على ضآلتها تتميز بالأصالة والموضوعية، وتؤصل للظواهر، وتفسر مداخل الاضطراب، وأسباب الخلط في الرواية،

ولعل هذا التحليل المفصل لظاهرة وضع الشعر على ألسنة الجن والغيلان، والحديث عن المغامرات الموهومة معها لعل هذا التحليل يعطي القارىء صورة صحيحة عن طبيعة العقلية الناضجة لعلماء المعتزلة، والجهد العلمي الرائع الذي أسدوه للفكر الإسلامي، ولغة العرب في شتى الميادين.

ثالثاً : المعتزلة والمنهج القويم لتفسير القرآن الكريم.

وهذا جانب آخر مهم من جوانب الحركة الإصلاحية التي أسهم بها المعتزلة في الفكر الإسلامي. ويتميز منهجهم في التفسير بأنه مبنيٌّ على أسس موضوعية، ترسم الطريق الصحيح لفهم النص القرآني، وتتلمس أهدافه ومراميه، لقد كان دور المعتزلة في تأصيل هذا المنهج ضروريا في مرحلة تجاوز بعض المتصدين لتفسير الكتاب العزيز إلى إثبات اقوال وتأويلات لا تمت إلى النص القرآني بصلة، ولا تتلاقى مع دلالات اللغة، وأعراف الناطقين بها وما تواضعوا عليه، فحاول نفر من هؤلاء أن يطوعوا تفسير القرآن الكريم لمذاهبهم، وتوجهاتهم العقدية، وبخاصة في أوساط الفرق الإسلامية على تباين مواقفها، واتسام مواقف بعض المنتمين إليها بالغلو والشطط.

أدرك أعلام المعتزلة ومنظرو فكرها ذلك الانحراف في فهم النص القرآني فقاوموا ذلك الخلل، وكشفوا عواره، وبينوا زيفه، وقد تعقبوا تلك الأقوال الغريبة والتفسيرات التي لا تستند إلى دليل، ويعد جهد أقطاب الاعتزال في هذا الميدان من أهم الجهود التي بذلها العلماء في تلك المرحلة المبكرة من حياة الحركة العلمية عند العرب في تناول البحث البلاغي بأسلوب تطبيقي واقعي، كما كان أهم جهد تحليلي دقيق لمفاهيم بلاغة الأسلوب، ومن ثم التمهيد لما استفاض بعد ذلك من البحث في إعجاز القرآن الكريم.

لقد بنى المعتزلة منهجهم في التفسير على أساس واضح لا خلاف عليه وهو أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، واصطنع أساليبهم في البيان، وطرائقهم في التعبير والتصوير، وهذا الرباط الوثيق الذي عقده المعتزلة بين القرآن الكريم والبلاغة العربية هو ما يحمل الباحث المنصف على أن يتأمل هذا المنهج ويصغي إلى ما يقود إليه فيما يتصل بفهم النص القرآني بعيدا عن تأويلات المتأولين، وشطحات الغالين.

أثبت الجاحظ في " الحيوان " بحثاً مستفيضا لأستاذه النظام انتقد فيه طائفة من المفسرين، وسفه آراءهم، وكشف نواحي القصور والخلط في أقوالهم ومزاعمهم، وسأورد في هذا السياق بعض الآيات التي توقف النظام عن قبول أقوال المفسرين القدامى حولها، وكشفه جوانب الخلل في تلك الأقوال والتأويلات، ثم أُتبع ذلك بإيراد تفسير هذه الآيات عينها من كتاب " الكشاف " للزمخشري وهو معتزلي أيضا وإن تأخر زمنا ؛ لأنه خير نموذج عملي لطريقة المعتزلة في التفسير.

حكى الجاحظ قال : " كان أبو إسحاق يقول : لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين، وإن نصبوا أنفسهم للعامة، وأجابوا عن كل مسألة، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم، وليكن عندكم " عكرمة "، و " الكلبي "، ، السدي "، و " الضحاك "، و " مقاتل بن سليمان "، و " أبو بكر الأصم " في سبيل واحدة !! فكيف أثق بتفسيرهم، وأسكن إلى صوابهم ؟ وقد قالوا في قوله عز وجل : " وأن المساجد لله " أن الله عز وجل لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها، بل إنما عنى : الجباه وكل ما سجد الناس عليه من يدٍ ورجلٍ وجبهة وأنف وثفنة ؟. وقالوا في قوله تعالى : " أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت " أنه ليس يعني الجمال والنوق، وإنما يعني السحاب ؟...، وقالوا في قوله تعالى : " ويلٌ للمطففين " الويل واد في جهنهم، ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي ؟ والويل في كلام العرب معروف ! ، وقال آخرون في قوله تعالى : " عينا فيها تسمى سل سبيلا " قالوا: أخطأ من واصل بعض هذه الكلمة ببعض. قالوا إنما هي : سل سبيلا إليها يا محمد !! فإن كان كما قالوا فأين معنى تسمى ؟ وعلى أي شيء وقع قوله تسمى، فتسمى ماذا ؟ وما ذلك الشيء ؟...، وقالوا في قوله تعالى : " وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا " . قالوا : الجلود كناية عن الفروج ! كأنه لا يرى أن كلام الجلد من أعجب العجب !..، وقالوا في قوله تعالى : " كانا يأكلان الطعام " إن هذا إنما كان كناية عن الغائط ! كأنه لا يرى أن الجوع وما ينال أهله من الذلة والعجز والفاقة، وأنه ليس في الحاجة إلى الغذاء ما يكتفى به في الدلالة على كونهما مخلوقان حتى يدعي على الكلام ويدعي له شيئاً قد أغناه الله تعالى عنه... " (٣٦)

وتجدر الإشارة إلى أن النظام قد صدر في حملته على بعض المفسرين انطلاقا

من وجهة المعتزلة التي تميل إلى ربط النص القرآني بسياقه اللغوي ومحاولة فهمه على ضوء استخدام العرب لأساليبهم، وفهمهم لمراميها ودلالتها، ولو راعينا هذا الأصل وأعدنا النظر في موقف أبي إسحاق من الأقوال التي ذهب إليها هؤلاء المفسرون حول تلك الآيات – لوجدنا أن ما ذهب إليه النظام أقرب إلى القبول، وأشبه بالحقيقة، وأدخل في الإعجاز والبراعة.

وأسوق للقاريء هنا بعض مقتطفات من تفسير " الكشاف " للزمخشري كما وعدت آنفا ؛ لتتأكد للقاريء أبعاد منهج المعتزلة في التفسير، وموقفهم من بعض من يبعد في التأويل، أو يحمل النص القرآني أكثر مما تحتمل دلالته من حيث الاستخدام اللغوي المألوف في كلام العرب، وسنلحظ أن طريقة الزمخشري هذه تؤكد على براعة الجملة القرآنية، وتكشف معالم جمالها التعبيري، كما يؤصل ويحرر كثيرا من القيم البلاغية التي تؤكد الإعجاز القرآني في أبهى صوره.

ها هو ذا يفسر قول الحق تبارك وتعالى : " وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء " يقول :

" غلُّ اليد مجاز عن البخل..، ومنه قوله تعالى : " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط " ولا يقصد من يتكلم بهذا الكلام إثبات يد ولا غل ولا بسط، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وما وقع مجازاً عنه ؛ لأنهما كلامان متعاقبان على حقيقة واحدة، حتى إنه يستعمله في ملك لا يعطي عطاء قط، ولا يمنعه إلا بإشارة من غير استعمال يد وقبضها وبسطها !! ولو أعطى الأقطع المنكب عطاءً جزيلا لقالوا : ما أبسط يده للنوال ! ؛ لأن بسط اليد وقبضها عباراتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود، وقد استعملوهما بحيث لا تجوز اليد. كقوله :

جاد الحمى بسط اليدين بوابل شكرت نداه تلاعه ووهاده

وقد جعل لبيد للشمال يدا في قوله :

*** إذا أصبحت بيد الشمال زمامها ***

ويقال : " بسط اليأس كفيه في صدري " فجعلت لليأس الذي هو من المعاني لا من الأعيان كفين... ومن لم ينظر في علم البيان عمي عن تبصر محجة الصواب في

أمثال هذه الآية، ولم يتخلص من يد الطاعن إذا عبثت به " [٣٧]

ويقول في تفسير قوله تعالى : " عينا فيها تسمى سلسبيلا " ... لسلاسة انحدارها في الحلق، وسهولة مساغها، يعني أنها في طعم الزنجبيل، وليس فيها لذعة، ولكن نقيض اللذع وهو السلاسة...، وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن معناه : سل سبيلا إليها..، وهذا غير مستقيم على ظاهره، إلا أن يراد أن جملة ق-ول القائل : سل سبيلا جعلت علماً للعين، كما قيل تأبط شرا...، وسميت بذلك لأنه لا يشرب منها إلا من سأل سبيلا إليها بالعمل الصالح، وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع، وعزوه إلى مثل علي أبدع !! " [٣٨]

ويفسر الزمخشري آية : " أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت " بقوله : " أفلا ينظرون إلى الإبل نظر اعتبار كيف خلقت خلقاً عجيبا دالا على تقدير مقدر، شاهداً بتدبير مدبر، حيث خلقها للنهوض بالأثقال، وجرها إلى البلاد الشاحطة، فجعلها تبرك وتحمل عن قرب ويسر، ثم تنهض بما حملت، منقادة لكل من اقتادها بأزمَّتها، لا تعازّ ضعيفا، ولا تمانع صغيراً !! برأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار...، وحين أراد بها أن تكون سفائن البر، صبَّرها على احتمال العطش، حتى أن أظماءها لترتقع إلى العشر فصاعدا، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز، مما لا يرعاه سائر البهائم، وعن سعيد بن جبير قال : لقيت شريحا القاضي فقلت أين تريد ؟ قال : أريد الكناسة. قلت وما تصنع بها ؟ قال : أنظر إلى الإبل كيف خلقت !!. فإن قلت كيف حسن ذكْر الإبل مع السماء والجبال ولا مناسبة ؟ قلت : قد انتظم هذه الأشياء نظر العرب في أوديتهم وبواديهم، فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم، ولم يَدْعُ من زعم أن الإبل : السحاب إلى قوله إلا طلب المناسبة.. " [٣٩]

وعلى هذا المنهج الرائع في تفرس دلالات العبارة يمضي المعتزلة في تفسيرهم للقرآن الكريم، بفهم ثاقب، ونظر دقيق، وتأمل مستبصر، في حرص شديد على إعطاء النص القرآني حقه من الفهم، وإنعام النظر، واستشفاف العبرة، وتلمس المغزى، دون الانجراف إلى التأويلات الغريبة التي لمس الزمخشري فيما نقناه عنه آنفاً أنها كانت مبنية على عدم فهم سياق النص القرآني، ومن ثم حملت بعض هؤلاء المفسرين على

اللجوء إلى التأويل الذي لا يتلاءم مع سياق الكلام ودلالة اللغة للوهلة الأولى.

ولا مراء في أن هذا المنهج الذي أرساه المعتزلة في التفسير قد مهد لفهم الكتاب العزيز فهما حقيقيا، وفسح الطريق أمام البحث المستوعب، والتأمل الواعي لمدلول النص القرآني، وأسرار التنزيل الحكيم، فكان المعتزلة أول من أمسك بذلك الخيط الدقيق الذي توصل العلماء عن طريقه – بعد ذلك – إلى استكناه الأسرار الحقيقية لإعجاز القرآن، وبلوغه الذروة في البلاغة، وارتفاعه عما عداه من الكلام !!.

جهود الجاحظ في النقد الأدبي :

لأبي عثمان إسهام في ميدان النقد الأدبي، ولقد أضافت آراؤه في الفنون الأدبية، وطريقته في تذوقها وتقويمها إلى الفن النقدى عند العرب أبعادا جديدة، وانتقلت به من طور كانت السمة الغالبة عليه هى التلقائية والسطحية إلى طور آخر أخص خصائصه التعمق والتحليل، والبحث عن القيمة الفنية التى ينطوى عليها العمل الأدبى وتمييزها عما عداها. وتعد جهود الجاحظ من هذه الزاوية علامة بارزة على ارتقاء الفكر النقدى في القرن الثالث كما أنها تعد نمطا فريدا في النقد العربى في مختلف عصوره .

وعلى الرغم مما صارت إليه الدراسات النقدية في العصر الحديث من نضج وما دخل مناهجها من مفاهيم فإن الجاحظ قد سبق إلى تقرير الكثير من الأصول النقدية التى لا يزال النقد الحديث يصدر عنها ويعتد بها، ولعل السر في هذا الخلود الذى تحظى به آراء الجاحظ في النقد يرجع إلى أنه كما هو معروف - كان صاحب فكر مستنير وعقل متحرر، وقد أفاد من فكره وعقله، بالاضافة إلى ذوقه اللماح وخبرته الطويلة بتراث العرب الأدبى واطلاعه على آداب الأمم المتصلة بهم فظهر أثر ذلك كله في الأصول التى قررها ووسمها بتلك الخاصية الفريدة. ولسوف يبقى تراث الجاحظ المتجدد في ميدان النقد دليلا لا يمكن نقضه على أن الاهتداء إلى حقائق الفن وظواهره ليس وقفا على جنس من أجناس البشر أو حضارة من الحضارات، بل هو على الدوام نتاج العقل المستنير، والإحساس المرهف في أي عصر كان وفي أي حنس من أجناس البشر وجد. وقد كان الجاحظ عل جانب لا خفاء به من الفكر المستنير والذوق المرهف والحس اللماح. **وأشير في الفقرات التالية إلى بعض ما تردد في تراث الجاحظ من ملاحظات أثْرت الفكر النقدي والدراسات المتصلة بالفنون الأدبية في عصره، وكانت جذوراً لآراء ونظريات**

مهمة استفاد منها النقاد والذواقون على امتداد العصور.

١) الجاحظ والمديح الكاذب :

كان الجاحظ من أوائل النقاد العرب الذين حاولوا تخليص شعر المديح – وهو كما نعرف – باب من أكبر أبواب الشعر العربى – مما دخله من الزيف والتملق على أيدى جماعة من مرتزقة الشعراء، أولئك الذين انحدروا به إذ جعلوه مطية لمآربهم المادية، ومطامعهم الرخيصة دون أن يكون لما يتفوهون به أساس من الانفعال الصادق، أو ظل من الحقيقة الخالصة ؛ ولذا دعا الجاحظ إلى ضرورة التزام الشاعر المادح الصدق في مدائحه، فلا يصدر فيما يقول الا عن احساس صادق واقتناع حقيقى، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فقرر أن من يثيب الشاعر الكاذب يرتكب جريمة في حق نفسه وفي حق الفن على السواء يقول :

" وخير المديح ما وافق جمال الممدوح، وأصدق الصفات ما شاكل مذهب الموصوف وشهد له أهل العيان الظاهر والخبر المتظاهر، ومتى خالف هذه القضية وجانب الحقيقة ضار المادح ولم ينفع الممدوح. ومن قبل لنفسه مديحا لا يعرف به كان كمادح نفسه، ومن أثاب الكذابين على كذبهم كان شريكهم في إثمهم وشقيقهم في سخفهم، بل كان المحتقب لكبره المحتمل لوزره، إذ كان المثيب عليه والداعى اليه ".

وفي موضع آخر يقول :

وأنفع المدائح للمادح وأجداها على الممدوح، وأبقاها أثرا، وأحسنها ذكرا أن يكون المديح صادقا، ولظاهر حال الممدوح موافقا، وبه لائقا حتى لا يكون من المعبر عنه، والواصف له إلا الإشارة اليه والتنبيه عليه (٤٠).

وروى الجاحظ في الحيوان هذه الحكاية قال :

دخل بعض أغثاث البصريين على رجل من أشراف الوجوه يقال في نسبه فقال: إني مدحتك بشعر لم تمدح قط بشعر أنفع لك منه قال : ما أحوجنى إلى المنفعة ! ولا سيما كل شيء منه يخلد على الأيام فهات ما عندك فقال :

سألت عن أصلك فيما مضى أبناء تسعين وقد نيفوا

فكلهم يخبرنـى أنـه مهذب جوهره يعرف

فقال له :قم في لعنة الله وسخطه فلعنك ولعن من سألت ولعن من أجابك!![٤١]

وهكذا نرى أن الجاحظ يحاول أن يضع أساسا موضوعيا يحكم نتاج الشعراء في هذا الباب ويقوم شعرهم بالنظر اليه، فهو يريد من الشاعر المادح ألا يبيح لنفسه اختلاق الميزات، أو افتعال المآثر التى لا وجود لها، بل يوجهه ويلفت نظه إلى أهمية ألا يتعلق إلا بالصفات التى تنطق بها حال الممدوح، ويشهد له بها الجميع، بحيث لا يكون من الشاعر المادح سوى الاشارة اليها والتذكير بها.

٣) وضوح المعانى وانكشافها :

يولي أبو عثمان عناية خاصة للمعانى كما هو شأنه مع الألفاظ، بيد أنه يقصد المعانى الواضحة، التى تسرع إلى دخائل النفوس قبل الآذان، وتهدهد شغاف الشعور والوجدان، لا المعانى الغائمة التى يتعثر في إدراكها العقل ويجهد المتلقى ذهنه في التعرف على مدلولاتها ومقاصدها، والجاحظ ينظر من هذه الزاوية إلى العمل الأدبي على أنه ذو طبيعة خاصة في إيصال المعانى إلى العقول، إذ يسلك إلى ذلك أقرب طريق ويعرضها في أبهى معرض وأوضح صورة. روى صاحب الأغانى قال :

(أخبرنى أب-ودل-ف هاشم بن محمد الخزاعى قال : تذاك-روا يوما شعر أبي العتاهية بحضرة الجاحظ إلى أن جرى ذكر أرجوزته المزدوجة التى سماها " ذات الأمثال"، فأخذ بعض من حضر ينشدها حتى أتى على قوله :

ياللشباب المرح التصابى روائح الجنة في الشباب

فقال الجاحظ للمنشد : قف. ثم قال : انظروا إلى قوله :

***روائح الجنة في الشباب ***

فان له معنى كمعنى الطرب الذي لا يقدر على معرفته الا القلوب وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير، وخير المعانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه " [٤٢]

ولعلنا نلاحظ أن الجاحظ أشار في حكمه على شعر أبى العتاهية المتقدم إلى حقيقة

نقدية مهمة يعترف بها النقد الحديث وهى أن هناك من مظاهر الجودة في الأعمال الأدبية ما يصعب تحديد أسبابه لأنه لا يعود إلى خاصية فنية معينة، أو يخضع لمقياس جمالى محدد ولكن جودته ترجع إلى استحسان المتذوق المتمرن له استحسانا تلقائيا، ولو سئل عن سر هذا الاستحسان لما استطاع أن يدل على شيء معين أو كما يقول الجاحظ يحتاج إلى التطويل وإدامة التفكير قبل أن يحدد سبب استحسانه.

ومقياس وضوح المعانى وانكشافها مبدأ عام من مبادىء النقد عند الجاحظ، وهو لا يختص بالشعر فحسب، بل هو مقياس للنتاج الأدبى الجيد بصفة عامة يقول الجاحظ:

"وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه وكأن الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة، وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله، فاذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه ومنزها عن الاختلال، مصونا عن التكلف – صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة، ونفذت من قائلها على هذه الصفة أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة " (٤٣)

٣) القيمة الفنِّية :

من شواهد عظمة الفكر النقدى للجاحظ وبراعته في فهم حقائق الأدب، وتحديد أصوله تفريقه بين القيمة الفنية التى هى الأساس في كل عمل أدبى جيد وبين ما عداها من القيم التى قد تجيء عرضا، ومحور هذا المقياس في نقد الجاحظ أن الأدب يجب أن يقوّم بمقدار ما فيه من قيم فنية ولا ينبغى أن تجتلب له قيم أخرى فكرية أو فلسفية، فإذا استطاع الشاعر أو الأديب أن يوفى عمله الأدبي نصيبه من هذا الجانب فلا ضير عليه بعد ذلك وليس للناقد أن يلتمس وراء الوفاء لتقاليد الفن وأصوله أمورا أخرى.

والجاحظ عندما عرض هذا المبدأ كان يريد أن يقرر أصلا مهما من أصول النقد الأدبى وبصحح خطأ كبيرا وقع فيه كثير من الناظرين في الأدب والمتصدرين لنقده أداهم الوقوع فيه إلى الخلط بين ما هو من أسس الفن ودعائمه وبين مالا يتصل به بسبب.

والغريب أن كلام الجاحظ في تقرير هذا المبدأ قد أسيء فهمه، وحمَّله جماعة من الباحثين ما لا يحتمله، وبنوا عليه نتائج لا أساس لها من الصحة. ونحن نثبت كلام الجاحظ ونذكره برمته لنعرف الغرض الحقيقى منه كما يتضح من السياق.

يقول الجاحظ في كتابه " الحيوان ": (٤٤)

" والقضية التى لا أحتشم منها ولا أهاب الخصومة فيها أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء القرى والأمصار من المولدة والنابتة، وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه ...، وقد رأيت ناسا منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها، ولم أر ذلك قط الا في رواية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أى زمان كان ."

وحتى هذا القدر من كلام الجاحظ ندرك أنه يناقش قضية عامة من قضايا نقد الشعر، وكلامه فيها يصور روحه النقدية، وطبيعته العلمية المتحررة، إذ لم يقطع بأن العرب أشعر من المولدين على الاطلاق وانما جعل عامة العرب أشعر من عامة المولدين، وأظن أن أحدا لا يستطيع أن ينكر ما في هذا الرأى من سداد واقتراب من الحقيقة. ثم يعلن الجاحظ إنكاره لتعصب الرواة أو النقاد على المولدين واستخفافهم بأشعارهم مما لا يتفق مع الحقيقة ويتنافى مع الموضوعية. ثم يأخذ الجاحظ بعد ذلك في عرض صورة من صور النقد الخاطىء ويعلق عليها بما يوضح مبدأه في تقويم الشعر وإدراك قيمته فيقول بعد مقالته السابقة مباشرة :

"وأنا رأيت أبا عمرو الشيبانى وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة أن كلف رجلا حتى أحضر له دواة وقرطاسا حتى كتبهما... وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا، ولولا أن أدخل في الحكم بعض الفتك لزعمت أن ابنه لا يقول شعرا أبدا .!! وهما قوله :

لا تحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكن ذا أفظع من ذاك لذل السؤال

وذهب الشيخ إلى استحسان المع---نى، والمعانى مطروحة في الطريق يعرفها العجمى والعربي والبدوى والقروى، وانما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة

المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك فانما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير" .

هذا كلام الجاحظ كله وقد فهم منه بعض الباحثين أن الجاحظ ينتحل تفضيل الألفاظ على المعانى وينسب البراعة في الأعمال الأدبية إليها دون المعانى. واعتقادى أن الذين استنتجوا من كلام الجاحظ هذا هذا الاستنتاج لم يفهموه حق فهمه، ولم يدركوا المغزى الحقيقى له ولعلهم أخذوا عبارته عن المعانى وكونها مطروحة في الطريق يعرفها العربى والعجمى...الخ - مبتورة عما قبلها، ولم يراعوا مضمون الكلام وفحوى السياق. فالمعانى التى يتحدث عنها الجاحظ كما يشهد مضمون الرواية - ليست المعانى المقابلة للألفاظ، وإنما هو يقصد بالمعانى هنا : تلك المضامين الكلية التى تستفاد من جملة الكلام وبعبارة أخرى يقصد المعانى في عرف أولئك الذين ينظرون في الأشعار بقصد إلتماس الرأى الصائب، والحكمة الراشدة، والاستفادة بآراء المتمرسين بقوانين الحياة ومصائر الأمور، ولو أنعمنا النظر في مضمون البيتين المذكورين بناء على هذا التصور لوضح لن–ا أن معناهما مما يعرفه العربى والعجمى كما يقول الجاحظ. فمضمون البيتين أن م– –ن تلجئه الفاقة إلى إراقة ماء وجهه في السؤال يحسب في عداد الموتى بل لعل الميت أقل معاناة منه لأن الميت لا يتضرر بمذلة السؤال.

٤) التكلف والطبع :

أدرك الجاحظ أن المواهب الفطرية هي أساس النبوغ في الفنون عامة والأدب خاصة، وقرر أن المواهب والملكات تتنوع بتنوع هذه الفنون، ففي ميدان الفنون الأدبية يكون لأديب ملكة في الكتابة، ولآخر ملكة في قرض الشعر، ولثالث ملكة في الخطابة وهكذا..، والشاعر قد يظهر نبوغه في غرض معين من أغراض الشعر كالغزل أو الوصف، ولا يحسن غيره، وقد يجيد في القريض ويخفق في الرجز، أو العكس، وقد يجيد فيهما معا (٤٥)

والجاحظ عندما حلل هذه الظاهرة كان يقر أصلا مهما من أصول الطبائع الإنسانية، وملمحا من ملامح البحث العقلي في منابع الإبداع الفني، ولعل من أهم ما يستفاد من تقريرات الجاحظ في هذه القضية أن يتنبه الناس إلى هذا الأساس الذي يقوم

عليه الإبداع وهو الموهبة، ومن ثم فالعاقل من يقدر هذا الأصل ويراعيه فلا يحمل نفسه على ما ليس في مقدورها.

٥) القديم والمحدث :

يعد الجاحظ أول من أنصف الشعراء المح--دثين، وأب-رز محاسن شعرهم ولم يقف منهم موقف التوجس والتحقير كما فعل أكثر معاصريه وسابقيه من العلماء، وكان - على سبيل المثال -يعجب ببشار ويقول عنه : " ليس في الأرض مولد قروي يعد شعره في المحدث إلا وبشار أشعر منه" ، وكان يعجب كذلك بأبي نواس ويقول عنه:(٤٦)

" إن تأملت شعره فضلته إلا أن تعترض عليك فيه العصبية، أو ترى أن أهل البدو أبدا أشعر، وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل !! "

تلك مقتطفات أوردناها في إيجاز مما أسهم به الجاحظ في النقد الأدبي، ونتاجه كما لمسنا حافل بدلائل الأصالة والعبقرية والنضج وبعد النظر. فقد سما بالبحث النقدي إلى آفاق جديدة، واهتدى إلى أصول ومبادىء لم يسبقه إليها أحد، كما أنه لم يحصر نظره في جوانب بعينها بل أفاض في بحث ما يتصل بالأدب من مختلف جوانبه، كالبحث في المواهب والملكات، وطبيعة الإبداع، وغايا ت الأدب وأهدافه، والصدق الفني وغيرها، وهوفي ذلك كله سابق لعصره، تلتقي أفكاره وآراؤه النقدية في كثير من أسسها ومراميها مع المفاهيم النقدية الحديثة.

ولعل ما سقناه فيما تقدم من مشاركات أقطاب حركة الاعتزال في الدراسات الأدبية والنقدية في القرنين الثاني والثالث للهجرة ينتهي بنا إلى جملة نتائج ودلالات أوجزها في النقاط التالية :

١- لعبت حركة الاعتزال دوراً فكريا مهما في القرنين الثاني والثالث للهجرة، وهي مرحلة مهمة في تاريخ النهضة العلمية عند العرب بصفة عامة ؛ إذ كانت بداية التحول من طور التلقي الشفوي والرواية إلى طور التسجيل والتدوين، فكان منهج المعتزلة الفكري الذي يعتمد العقل، ويعلي من شأن ما يسلم إليه من نتائج وتقريرات –

دعامة مهمة خدمت البحث في شتى ميادين العلوم في حضارة دولة الخلافة في العصر العباسي، وفي مقدمتها الدراسات المتصلة بالأدب ونقده.

٢- اقتضت طبيعة الموقف الذي سلكه المعتزلة مع خصومهم، ومنازلاتهم لهؤلاء المناوئين – حذق أساليب الجدل وأصول المناظرات، والمهارة في التعبير، والقدرة على الاستمالة والإقناع عناصر رئيسة في هذا الميدان. وهي في مجملها مهارات لها جانب أدبي لا يستطاع إغفاله.

٣- أسهم أقطاب حركة الاعتزال بحكم طبيعة زمنهم الذي لم يعرف اقتصار العالم على فن أو نشاط علمي واحد لا يعدوه في ميادين علمية وفنية متعددة فقد كان منهم خطباء مفوهون، وشعراء بارعون، وكتاب لهم قدم راسخة في ميدان التأليف، وتسطير الرسائل في مختلف الفنون، وشتى ميادين المعرفة.

٤- لمسنا في هذه الإطلالة العجلى ألوانا من إسهامات رموز المعتزلة في ميدان الدرس الأدبي والنقدي، ورأينا في تلك الإسهامات بذوراً واعدة بل إرهاصات كانت تمهيدا لبزوغ نشاط علمي خصب عاون هؤلاء الأقطاب في وضع لبناته، وإقامة الدلائل البارزة على معالمه. وتلك مهمة جُلَّى لا يصح بحال التقليل من حجمها، أو التشاغل عنها عند تعداد المآثر التي أسدتها هذه الجماعة لتراثنا الفكري والأدبي في مختلف الميادين.

الهوامش :

١) الملل والنحل .٥٧ / ١

٢) الانتصار .١٧

٣) المرجع .٤١

٤) المنية والأمل .٣٠

٥) أدب المعتزلة ويراجع الفصل لابن حزم٢/١١٣ ، والانتصار للخياط .١٢٦

٦) المنية والأمل .٦

٧) المرجع .٥

٨) المرجع٧ ، .٨

٩) مقدمة كتاب الانتصار .٥٨

١٠) الحيوان .٢٥٦ /٣

١١) المنية والأمل .٣٧

١٢) تاريخ بغداد .١٤٨ /٧

١٣) الملل والنحل ١/ ٦٦.

١٤) المنية والأمل ٢٥.

١٥) المرجع ٢٦.

١٦) المرجع والصفحة.

١٧) سرح العيون .٢٢٦

١٨) أمالي المرتضي ١/.١٣٤

١٩) سرح العيون .٢٢٩

٢٠) طبقات ابن المعتز .٢٧٢

٢١) المنية والأمل ٢٨.

٢٢) سرح العيون .٢٤٩

٢٣) البخلاء .٤٠

٢٤) المرجع ٢٤، .٢٥

٢٥) المنية والأمل ٣٠.١٤

٢٦) ١/ ١٠٤-.١٠٦

٢٧) المرجع ١/ .١٠٤

٢٨) المرجع والجزء والصفحة.

٢٩) الرسالة العذراء ٣٠.

٣٠) البيان والتبيين ١/١٠٥.

٣١) المرجع والصفحة.

٣٢) المرجع والصفحة.

٣٣) المرجع ١/ ١٠٦.

٣٤) المرجع والصفحة.

٣٥) الحيوان ٦/ ٢٤٨.

٣٦) المرجع ١/ ٣٤٣، ٣٤٤.

٣٧) الكشاف ١/ .٦٢٧

٣٨) المرج-ع ٣/ ٤٥٠.

٣٩) المرج-ع ٤ / ٢٤٧.

٤٠) رسائل الجاحظ ١٧٤.

٤١) الحيوان ٥/.١٧٧

٤٢) الأغاني ٤/.٣٦

٤٣) البيان والتبيين ١/٧٣.

٤٤) الحيوان ٣/.١٣٠

٤٥) البيان والتبيين ١/.١٥٠

٤٦) الحيوان ٤/ ٤٥٣.